(3)

السلطة المطلقة (الدوجمائية)

عرفت الممالك الأوربية في العصور الوسطى فكرة السلطة المطلقة (الدوجما Dogmas) لمعتقد أو مذهب لا مجال للمناقشة حوله أو التغيير فيه، بوصفه النموذج المثالي الذي لا يعرف الخطأ أو القصور، ومن ثمّ لا يحتاج إلى تحديث أو تطوير، فكان هذا النوع من السلطوية سلاح رجال الدين الكنسي في أوروبا في تجميد محاولات إصلاح الدولة، فأعاقوا الأفكار التقدمية باسم حماية القديم، وحاربوا محاولات الفكر الحرّ باسم امتلاك المذهب المثالي الثابت.

ونؤكد نحن المسلمين دومًا أننا أبعد ما نكون عن الدوجما في الفكر الإسلامي، وننفي فكرة دينية الدولة التي يكون فيها الحاكم ناطقا باسم الله و إذا سلّمنا بصحة هذا من جانب أن الوحي لم يدعنا إلى ذلك إلا أننا لا يمكننا إنكار أننا نعيش الفكرة حين يرسّخ جانب من الخطاب الإسلامي لسلطة مطلقة «دوجمائية» باسم الخلافة الإسلامية، فيجعل نموذج الدولة أسير نمط تاريخيٍّ، لا يمكن تجاوزه، فلا تختلف رؤية كثير من الدارسين عن قول أحدهم: «الخلافة الراشدة النموذج المثالي الوحيد المعبّر عن مثالية القرآن الكريم بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولقد عرف هذا النموذج تطبيق القيم السياسة الإسلامية بصورة مثالية على أرض الواقع، وتُعدّ فترة حكمهم العصر الذهبي أو المثالي للخلافة، واحتلت تلك الفترة من الحكم مكانة خاصة في نفوس المسلمين، واتسمت بطابع معياري حاولت

كـل العصور -أو الهيئات- التي مرّت على المسلمـين أن تقتفي أثره وأن تُعيد كتابـة تاريخه، ومـن ثمّ يظل هـذا النموذج ميزانًـا ومعيارًا لنظـام الإسلام الديني والسيـاسي والأخلاقـي والاجتماعي.. ولا شـك أن المسلمين يتفقون على صلاحية عناصر هذا النموذج، وبالتالي تقوم النماذج الأخرى على ضوء معطيات هذا النموذج.»[1]

ويتناقـض بعضهـم في نظرتـه الدوجمائية للخلافة الإسلاميـة، فمرة ينفي عن دولة المسلمين الثبات والتجريد الذي يحمله الإسلام بصفته دينا سماويا، فيرى الدولة تتشكل وفق «تفويض الأمر للأمة في كل ما يتعلق بتفاصيل نظام الحكم الإسلامي أو تحديد نواحيـه الشكلية، فالثابت تاريخيا أنه ليس هناك شيء محـدد حول هـذه المسائل. أو نقول إن الإسلام لم يُـورّث أتباعه قواعد محـددة جاهزة تصبـح بمثابة المعتقـدات الجامدة التي لا تجـوز معها المناقشة ولا تقبـل التغيير.»[2] فالدولة عنده بهذا الطرح منتج إنساني بموجب تفويض الأمة في شـكلها وتفاصيلها، ثم يعود في الدراسة نفسها فيجعل دولة المسلمين لهـا جانبين دنيوي وديني، فالنظام الذي أقامه رسول الله ﷺ والمؤمنون معه

(1) د. خليل عبدالمنعم مرعي، نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة، سلسلة روافد، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الإصدار 62، فبراير 2013م- ربيع الأول 1434هـ، ورجع الباحث في هذه المعاني والأفكار -كما أشار في هامش كتابه-إلى من اعتمد عليهم: د. حامد ربيع، تحقيق سلوم المالك في تدبير الممالك، ص221، - المودودي، الحكومة الإسلامية، ص219، - محمد سليم العوّا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص66، منى أبو الفضل، مذكرات في النظم السياسية العربية، مذكرات غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1983م.

(2) النظريات السياسية الإسلامية، ص33.

بالمدينـة -إذا نظر إليه مـن وجهة مظهره العملي، وقيـس بمقاييس السياسة في العصر الحديث- يمكن أن يُوصف بأنه «سياسي»، بكل ما تُؤديه هذه الكلمة من معنى. وهذا لا يمنع أنه يُوصف في نفس الوقت بأنه «ديني»، فالنظام يمكن أن يوصـف إذن في وقت واحد بالوصفين.»[1] ثم يعـود ويطرح تصورا ثالثا فيقدم السياسي التاريخي بوصفه دينيا تطبيقا لمبدأ الإجماع بقوله: «المجتهدون عليهـم أن يستمـدوا استدلالاتهم مـن الواقع، من الحقيقة أي مـن واقع حياة الأمـة الإسلامية في عصورهـا الماضية، وبوجه أخص مـن حياتها في عصرها الذهبي: وهو عصر الخلفاء الراشـدين، فسينظـر إليه إذن الفقهاء كالنموذج أو المثـال، الذي تنبغي محاذاته والذي تتمثل فيه الروح الإسلامية الصحيحة، ويستنبطـون أحكامهم مما حدث فيه من أعـمال.»[2] فجعل تاريخ المسلمين الأوائل هو المثال والنموذج المطابق للإسلام في علاقته بالدولة، ووقع في لبس بين استلهام القيم والمبادئ واستلهام الشكل والتفاصيل وتثبيتها، فجعل الخلافة التاريخية دينا يخرجها عن كونها منتجا إنسانيا متطورا ومتغايرا فيحولونها إلى كتلة دوجمائية مجردة ثابتة، النموذج الأمثل الوحيد في تاريخ المسلمين.

وتلك الرؤية لا تنطلق من مثالية ونموذجية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعـا- على المستوى الفردي بـل من مثالية تلك الفترة الزمنية من حيـاة المسلمـين، وأن تلك الفترة تمثّـل كتلة زمنية نموذجية، وهـذا يتنافى مع النقـل والعقل اللَّذين ينكرون عصمة إنسان فـما بالك بعصمة زمن ومجتمع، ولا يكفى الاستناد إلى وصف النبي الكريم لذاك الزمن بالخيرية، لأن المثالية

(1) النظريات السياسية الإسلامية، ص27.
(2) السابق، ص102.

والنموذجية تختلف عن كونهم أسبق إلى الخير وأنهم أفضل مكانة عن غيرهم بالصحبة وصحبة الصحبة، فالخيرية أفعل مفاضلة ترفع من قدرهم، وتعطيهم مكانة عن غيرهم، دون أن تخرجهم عن كونهم بشرا يجتهدون في مسائل الدولة ويتأثرون بواقعهم، فلا مجال لمثالية ونموذجية ثابتة لنظمٍ حكمٍ تتغير تبعا للظرف التاريخي والاجتماعي.

ويختلف أصحاب الرؤية الدوجمائية في تحديد الفترة التاريخية النموذجية للخلافة الإسلامية، فمنهم من يرى أن «الحكم الصحيح على «الخلافة» إنَّما يكون على فترة الخلافة الراشدة.»[1] فيقبل أن تنتقد بعض الكتابات تاريخ الخلافة الممتد بعدها حتى 1924م، فالنموذج فقط في الخلافة الراشدة الكاملة، وظهرت نتائج تلك الرؤية في كتابات مفسرين ومحدثين من أمثال ابن كثير، وفقهاء من أمثال الماوردي والغزالي ثم ابن خلدون الذي سيجعل تاريخ المسلمين كتلتين: إحداهما خلافة مثالية حتى نهاية خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وثانيهما خلافة ناقصة امتدت حتى عصر ابن خلدون، وهذا ما اعتمد عليه الدكتور محمد عمارة في جعل تاريخ المسلمين مع الخلافة كتلتين أيضا، إلا أنه مدّ أجل الخلافة الناقصة حتى نهاية الخلافة العثمانية، ولا يرى فارق بين المثالية والناقصة إلا في اختلال طفيف لميزان العدالة الاجتماعية، ولو عاد إلى روايات التاريخ التي نقلها الطبري وابن كثير وابن الأثير وغيرهم لوجد أن المسلمين جميعا بشر يعتري أفعالهم عبر التاريخ ما يعترى أفعال البشر، وليختر القارئ أحداث سنة عشوائية، ويراجعها ليرى أمثالية ملائكية أم بشرية إنسانية!

(1) الدكتور محمد رأفت عثمان، بحث الخلافة، ص46.

ويتصور الدكتور عمارة أن الخلافة نظام كامل من اللحظة الأولى لميلاده، وأنها إبداع لا مثيل له قائلا: «الخلافة الإسلامية إبداع جديد ومتميز وغير مسبوق في النظم السياسية العالمية في ذلك التاريخ الذي قامت فيه. بل ولا يزال نظامها متميزًا عن النظم السياسية الأخرى حتى هذا العصر الذي نعيش فيه..»[1] وهذا كلام فضفاض غير دقيق لأنه يُوهم أن الصحابة اختاروا الخلافة نظاما شرعيا للحكم، والواقع أن المسلمين لم يستعملوا لفظ الخليفة أو أمير المؤمنين بأي دلالة اصطلاحية شرعية، ولم تتجاوز دلالة خليفة رسول الله -لقبا لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدلالة اللغوية في كونه صحابيًّا حلّ محلّ رسول الله ﷺ زمنا وتاريخا، كما هو واضح في رفض أبي بكر قبول لقب «خليفة الله» وصوّبه بخليفة رسول الله، وتلاشى اللقب بعد ثلاثة أعوام من الاستعمال؛ وحلّ بدلا منه لقب أمير المؤمنين، أطلق على الخليفة الثاني عمر بن الخطَّاب، في وقت كان المسلمون متحيرين هل يقولون خليفة خليفة رسول الله؟! استثقلوا ذلك لتتابع الإضافات بتتابع الرؤساء، فتركوا اللقب إلى غيره..[2] بما يدل أنه لم يكن مستقر في أذهانهم غير المفهوم اللغوي لكلمة خليفة التي لم تحمل دلالة فقهية حينها كما أوضحنا من قبل.

(1) ينظر: الدكتور محمد عمارة، بحث الخلافة الإسلامية، ص26.

(2) أول من أطلق عليه لقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد كتب عمر إلى عامله بالعراق: أن ابعثْ إليَّ برجلين نبيلين أسألهما عن العراق وأهله، فبعثَ إليه لبيدَ بن ربيعة العامريَّ، وعديَّ بن حاتم الطائيّ، فلمَّا قدما المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ودخلا المسجد، فإذا هما بعمرٍ بن العاص فقالا لهُ: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال عمرو، أنتما والله أصبتما اسمه، نحن المؤمنون وهو أميرنا، فدعَوه بذلك، وذهب لقبًا له في النَّاس، وتوارثه الخلفاء بعد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (مقدمة ابن خلدون، ص189،190)

ومـن منظري الدولة الإسلامية المعاصرين من قدّم تصوّرا أكثر نرجسية وتمجيـدا لتاريخ المسلمـين فلا يفرق خلافة كاملة مـن ناقصة، كما صوّرها ابـن خلدون، فالخلافة الإسلامية عندهم حتـى نهاية العثمانيين نموذج لدولة الإسـلام، والحلـم والأمل الـذي يداعب جفـون الجميـع، «فكانت الخلافة الإسلاميـة واقعًا سجَّلـه تاريخ الأمـم في أنصع صفحاته بحـروف من نور وكلـماتٍ من ذهبٍ، ثم أضحت الآن -وبعد أن سقط عرشُـها، ودال مُلكها، وتهـدّم بنيانها! حُلما يداعب جفونَ الجميـع، وأملا يسعى الكافةُ لاسترداده والتمسـك بأطلاله.»[1] وتتوالى في لغتهم كـل ألفاظ التمجيد: الماضي المجيد الزاهر، والتجارب التاريخية الناجحة، والتجربة الإنسانية الرائدة.. ووحدة الصف، ووفرة الخير، وامتلاك القدرة، وانفراد الراية، وانعقاد الأمر لشخص واحـدٍ، هو الخليفة الذي يُجمَـع المسلمون تحت رايته، وهـو السبب للمجد والسـؤدد، بل وبلوغ غاية المجد.[2] فحشد المنظّـر كل هذه الألفاظ في أقل مـن صفحة لتمجيد الخلافة، ظنًّا أنهـا تاريخ الإسلام وليس تاريخ المسلمين، وأصبح تاريخ الخلافـة كتلة زمنية واحدة مجيدة، بتوصيفات وأحكام عامة واحـدة، بـل جعل مركزيـة الدولة القديمة في شـخص الخليفـة ليست صفة تاريخية تلاشـت بـل صفة محمودة يتمنـون العودة إليهـا، مرسخين بها فكرة المستبـد العـادل في وجدان المسلمـين، وجرّدوا مـن فعل الصحابـة المتغاير نموذجـا ثابتا، وجمّـدوا حالة التطور الحيوي في بنيتـه كنظام سياسي يتشكّل ولمّا يكتمل حينها.

(1) د. عبدالله مبروك النجّار، مستجدات فقه الخلافة الإسلامية، ص،61.
(2) السابق، ص،61،62.

فـإذا كانت الآراء تؤدي إلى حوادث تاريخيـة أحيانًا، فإن الحوادث -هي الأخرى- قد تُوحي بالآراء وتكون سببًا لها، وهذا ما حدث في قضية الخلافة التي بدأ التنظير فيها بدافع من حوادث تاريخية، ثمّ مضت الخلافة وتطورت حركة التاريـخ، وظلت الأفكار والنظريات في مكانهـا، لم يتجاوزه العقل المسلـم ظنـا أنها دينية أنتجهـا الوحي، وليست محـض آراء مجتهدين علينا أن نتجاوزها إلى اجتهادات أخرى بعد عمليات من التفكير والمراجعات.